قصة : جليل محمد شريف
ترجمة : عباس عسكر

الشمعة

كانت ترقد، على احدى اسرة صالة المستشفى، مستديرة وجهها قبالة الشباك ... ولم يكن يظهر لها غير زرقة السماء، من خلاله، نظراً لعلو الطابق الذي تقبع فيه .. وكانت ترهف الاذن لصوت مذياع بعيد .. جردت نفسها من كل احساس، ورغم ذلك الصوت البعيد الطري، كان الصمت الذي يسبق الظهيرة يسدل خيمة على رؤوس المرضى .

«آه .. ايها المغني المبدد الاتعاب، كم من الموانع ترفع الرؤوس في دربك .. وكم من الناس يسمعونك دون عناء، وهم يعتقدون، بانك تنعم بالسعادة، دون ان يدركوا بكد مايعنيه مخك واحساسك، وخلجاتك .»

بالكاد كانت تتقلب من جنب .. العمر والمرض قد بلغا منها الكثير، .. رغم تجاوزها السبعين، كانت النظافة والاناقة تبهران اهتمام الناظر اليها. لقد حفرت الايام الاخاديد على ملامح هذه العجوز .. ولكنها ـ لم تتمكن من ان تحجب ظلال الجمال والصبا من سيمائها ومآقيها . كف صوت الاغنية، تنهدت واستدارت صوب العليلة، المتاخمة لها :

ـ ايا ابنتي .. الم تكن اليوم احسن حالاً ..؟

ـ الحمد لله ياخاله، اليوم احسن .. لكنني افكر كثيراً، في اولادي .. بلهفة انتظر يوم غد لانه يوم المواجهة ـ ارجو الله رؤيتهم هذه المرة ايضاً، ولا اريد شيئاً آخر .. ولكن ياخاله يبدو ان أقاربك بعيدون منك، لم ار احداً يزورك، ويبدو عليك لا تنتظرين احداً .

لم تكن تنتظر مثل هذا السؤال الباتر للكبد، ثانية استدارت نحو الشباك كمثل من تبدي عدم الرضا . في الحقيقة، كانت بلا اهل، ولم يكن يزورها احد لقد فقدت اهلها. فمن ذلك اليوم جعلت الغناء اهلاً لها. فاستنكرتها الاقارب .. فغدت تدور في دوامة دنياها الخاصة، رغماً عليها. بعناء اطبقت عينيها .. لقد أثار ذلك السؤال الذي طرحته جارها العليله، بلا تردد شريطاً مغبراً ومنسياً من ايامها الخوالي بصورة متقطعة كانت تراها على زجاج النافذة .

ـ الناس يعرفني يوم كان لي اهل ـ .

[آه .. كم من الناس كان يتمنى ان يفوز بنظرة مني ..!؟ وكم من الفرح كنت ابعثه بصوتي وانغامي الى قلوب الهائمين، وكنت أدمل جروح الشباب، .. أبياتي كانت ترديداً للذين اكتوت قلوبهم في دروب العشق .. كنت المرتلة الوحيدةفي طقوس مشاهير شعبي .. صياح نشيدي كان يفرح بريق صدود المضطهدين العاشقين . صوت ـ قواناتي ـ كان يبث الفرح والحرارة في الايوانات والمقاهي .]

ـ أيا خاله، لم تجاوبي على سؤالي ..

التفتت الى صاحبة السؤال، بالكاد رفعت عينيها .. الدموع المنحدرة، انسابت من بين مآقيها على ملامحها المجعدة .. وهي كانت بمثابة أنجح الاجوبة، على سؤال تلك المرأة، وكذلك قد قطعت الدرب على اية اسئلة اخرى ونفس السؤال ذكرها، بسؤال الطبيب عندما جاءت اول مرة الى هذه المستشفى .

ـ اسمك !

ـ ب ـ أ ـ ي ـ

ـ عمرك .

ـ أكثر من سبعين .

ـ اقرب الاشخاص اليك هنا .

ـ لماذا . . ؟ .

ـ من اجل الاستعانة بهم وقت الحاجة، «ليس عندي أحد» .

ـ أنتم اهلي ...

لم يسهب الطبيب في كلامه، بعد مضي ايام قليلة، في منتصف ليلة ما، ظهر صوت خفقان ونحيب متقطع في جو ـ القاووش ـ .

رجلان يجران عربة. ودخلا الى القاووش بهدوء ووضعاها برفق على العربة دون ان يحدثا اية ضجة، ثم أخذوها.

لقد ذاع صدى موتها، بين جدران القاووش الاربعة، لاشيء غير خبر بارد. الفرق الموسيقية لم تدر بالخبر، الصحف لم تكتب ولا سطراً واحداً عنها. كانت الاذاعة بالصدفة تقوم باهداء احدى اغنياتها، لكن احداً لم يدر بان صاحبة الاغنية، قد غادرت دنياها. كل ماحدث لـ (ب ـ أ ـ ي) في هذا اليوم، وضعوها، أقصد جسدها، تحت ايادي طلاب كلية المستشفى، ليقوموا ببترها، قطعة .. قطعة .

* القصة منشورة في مجلة «كاروان» العدد/ ٣١ لشهر تموز ١٩٨٤ .